هداية الإله

بقلم: هبة أحمد

obeikan.com

أؤمن بالإشارات.. أعرف أنها طريقة الله للتواصل، طريقة من لا يتكلم بلسان، ولا يسمع بأذن، وهو عن كل ذلك نزيه! الله يُرسل.. يُرسل نداءاته إلى الوحي، ويرسل الوحي إلى الأنبياء، ويُرسل الأنبياء إلى البشر.. الرسالات هي لغة الله المفضلة؛ يضعها في قلبي أو يُريني إياها في أحلامي، و»الأحلام رسائل» كما قال عنها بهاء طاهر في «نقطة نور».

كنتُ أصلي ذات عِشاء، ووضع في قلبي رغبة نارية لأن أعتمر، هكذا دون مقدمات.. الآن.. الآن أحتاج إلى عمرة.. لا أمتلك من نفقاتها جنيهًا واحدًا! ومن يعرفني يعرف أنني لا أجيد فن الادخار.. حسنًا سأتدبر حالي أو بالأحرى سأقترض.

أمام رغبتي التي اندلعت فجأة، لم يجد أبي إلا أن يرضخ، وأن يقرضني تكاليف الرحلة.

وصلتُ إلى أحد فنادق المدينة المنورة، وكان مناسبًا لأقضي فيه ساعات نوم هادئة مُريحة، كما أنه كان شديد الاقتراب من الحرم النبوي؛ أرى من خلال نافذته -في الدور السابع حيثما قطنت- القبة الخضراء، هكذا دون حواجز.

وَطِئَتْ أقدامي أرض الفندق في الواحدة ظهرًا؛ لم أُطِقْ صبرًا على الذهاب إلى الحرم النبوي؛ استأذنت رفيقتي في الرحلة أن تهتم هي بالأمتعة وأن تشرف على نقلها إلى الغرفة المقررة، وذهبت أنا إلى الحرم.. ولأن «الغريب أعمى ولو كان بصير» خرجت من باب الفندق أسأل أحد المارة كل بضعة خطوات «لو سمحت.. الحرم النبوي منين؟» لم يَخْفَ على أحد أن هذه هي المرة الأولى لي في المدينة المنورة، رغم أنني أشك أن كل المرات الأول كانت بهذه التوهة لدى أصحابها، وحدي أنا أتوه وأسأل في مكان كهذا!!

لم أكن أترك الحرم إلى الفندق إلا مرتين كل يوم: ساعتين بين الظهر والعصر، وساعتين بالكاد من منتصف الليل إلى وقت السحر. مرَّ الأسبوع المقرر لي في المدينة، كما يمر حلم جميل لا نريد منه استيقاظًا.. وفي يومي الأخير قبل الذهاب إلى مكة طلبتُ منه -الله- أن يختم لي هذه الأيام بـ»هدية»؛ طفلة أنا في مثل هذه الأشياء،

وأتشبث بتفاصيل ربما لا يلتفت إليها غيري، أنا زرته عند نبيه، وأريد منه هدية!!

٢٤ ساعة تبقت لي في المدينة، وأنا أنظر حولي أبحث عن هدية يرسلها لي كما كان يفعل في الإشارات.. يرسل لي الإشارة تمامًا وقت احتياجي لها، ورأيتها هناك.. تقف على مبعدة مني منهمكة في عملها إلى مدى بعيد؛ فتاة تبدو عشرينية العمر، وتنتمي إلى البلاد التي يشبه سكانها بعضهم في جنوب شرق آسيا، تمسك فوطة صغيرة تمسح بها حائط المسجد النبوي من الداخل، تبللها من إناء تفوح منه رائحة المسك وتعود بها ثانية إلى الحائط، عيناها ويداها لا تتحركان إلا بين الإناء والحائط.

حاولت مساعدتها فيما تفعل تبركًا بتنظيف هذا المكان الشريف، لكنها رفضت! لم تكن تتحدث العربية ولا الإنجليزية، لكنها -إيماءً- رفضت! حاولت معها بكل الطرق دون أي فائدة! في نهاية اليوم كنتُ أعاتبه على عدم إرسال الهدية، وأنا التي اعتدتُ منه رقيق الحب والمُحاباة! وعلى حين شرود مني لمحتُ الفتاة تحمل الكثير من «فوط» التنظيف التي رأيتها تستخدمها منذ قليل.. نفس اللون والحجم الذي رأيته في يدها، تبعتها حتى وصلت إلى غرفة، يبدو أنها غرفة الفتيات القائمات على هذه المهمة.. دَخَلتْ وتركت الباب مفتوحًا خلفها.. تبعتُها إلى الداخل ولم أجدها.. نعم في كل جنبات الغرفة لم أجدها، ووجدت الفوطة التي استعمَلَتها قبل قليل - هي ذاتها- متروكة على المنضدة الموضوعة في مقابل الباب..

أخذت الفوطة دون تردد، وتشممتها ملء أنفي، ثم ظهرت الفتاة من اللامكان، وابتسمت ابتسامة رضا، وابتسمتُ أنا أيضًا.. أخذتُ الفوطة إلى صدري بتشبث كأنها ملكي منذ الأزل، وأوليت ظهري للفتاة وانصرفت.. أنظر إلى السماء بضحكة صافية، ولسان حالي يقول: «هدية مقبولة».